

في أفق السياسة العالمية

حديث الامبراطورية البريطانية

تقول الأساطير الاغريقية القديمة ان البطل الاثيني ثيسيوس Theseus حين ذهب إلى قصر التيه في جزيرة كريت متحديا ملكها ، أمسك بيده خيطا دقيقا كان يرخيه كلما تابع السير ، وبذلك أمن العثار ، فلم تختلط عليه مسالك القصر وعزضاته ، واستطاع في آخر الامر أن يجد لنفسه من التيه مخرجا . وليست الامبراطورية البريطانية الآن من حيث التعقيد والتنوع وكثرة الشعب أقل من قصور التيه في الأساطير القديمة جميعا . فما علينا إذا أردنا البحث في موضوعها إلا أن نسير في أحنائها ومعاطفها وييدنا حبل من التاريخ نثبتة في نقط معينة نختارها ، حتى لا نحيد عن محجة الطريق ، ثم نمضي بعد ذلك قدماً في بحثنا . ولتكن هذه النقط التي نختارها حول تطور حركة الاستقلال في الاملاك الحرة داخل الامبراطورية البريطانية .

وما دعاني إلى الكتابة في هذا الموضوع إلا أمران : الأول أن نهرو الزعيم الهندي ونائب رئيس حكومة الهند ، كان قد اقترح على الجمعية التأسيسية التي تضطلع الآن بمهمة وضع الدستور أن تعلن حكومة الجمهورية في الهند . وقد أرجأت الجمعية بحث الموضوع مؤقتاً وإقرار هذا الاقتراح يقتضي حتماً أن ينزل ملك انجلترا عن لقب «إمبراطور» ؛ فيفقد التاج البريطاني بذلك ألمع جوهرة تزينه . ذلك لأن الملك ليس له أن يتسم بلقب الامبراطور إلا بالاضافة إلى الهند ، أما في خارج الهند وفي انجلترا نفسها فهو الملك لا غير فهل مقدريا ترى أن تصبح الامبراطورية البريطانية اسما على غير مسمى ؟

أما الأمر الثاني فهو ما نلمسه الآن من تعنت الحكومة الانجليزية بشأن الجلاء عن مصر ووحدة وادي النيل . ولو تقصينا تاريخ الانجليز مع أبناء جلدتهم المنتشرين في أنحاء العالم ، ووقفنا على الجهود التي بذلها هؤلاء في المستعمرات التي اتخذوها وطناً ، والوسائل التي تذرعوها للخلاص من سلطان

البرلمان الانجليزي ونير الحكومة الانجليزية، لأدركنا أنه ليس أوقع في نظر الانجليز من قوة الأمر الواقع، وأن الحقوق المهضومة لا يكسبها أصحابها برخصة أو سند من الخارج، بل يستخلصونها بأيديهم ويستمدونها من ذات أنفسهم أولاً؛ وحينئذ لا يلبث الناس جميعاً أن يعترفوا لهم باستحقاقهم لما أحرزوه. وقد سلخ الانجليز قرابة ثلاثة قرون ونصف قرن يزاولون الاستعمار في قارات العالم القديم والجديد، وقد صادفهم في أثناء اضطلاعهم بهذه الشؤون ظروف مواتية وثروات طائلة، إلى جانب محن وأحداث وحروب وثورات ودروس وتقلبات كان من شأنها أن تكسب الحكومة الانجليزية خبرة ومراعاة في تكييف مسائل الشعوب الصغيرة والضعيفة التي تعرض لها. ولكننا مع الأسف نراها كلوك البوربون في فرنسا في القرن الماضي لم ينسوا شيئاً ولم يتعلموا شيئاً كثيراً؛ فهي إذا تعلمت كيف تعامل أبناءها وبناتها متى شبوا عن الطوق، نراها مع غير هؤلاء تعيد كتابة اللوح القديم من ألفه إلى يائه، وتقف أمامهم ملوحة بعصاها في انتظار الناقوس الذي سيدق حتماً مؤذناً باتهاء حصة المدرس وانصراف التلاميذ إلى بيوتهم حيث آباؤهم وأمهاتهم وبنو عشيرتهم يلقنونهم دروس الحياة في الحرية وحب الوطن.

وقد كابدت انجلترا أول دروسها في أمريكا، وكان تلاميذها من صفوة أبناء الطبقة المتوسطة أولئك الذين جاهدوا بأموالهم وأرزاقهم وعزائمهم في سبيل مبادئهم وضائرتهم، واشتروا الحرية في العالم الجديد بكل ما كان عزيزاً عليهم في العالم القديم.

فهل نعموا حقاً بالحرية التي تعشقوها، ورصيت لهم انجلترا في مقامهم الجديد بحق الاستقلال الذاتي يباشرونه بحراسة الحكومة الانجليزية وتحت إشرافها؟ لم يحدث شيء من ذلك، بل ظلت الحكومة الانجليزية تتدخل في شؤونهم، وتفرض عليهم القوانين التي يسنها البرلمان في إنجلترا، وتطلب أن يعرض عليها ما تقرره مجالس المستعمرات للموافقة عليه أو رفضه، وتتدخل الكنيسة الانجليزية في شؤون المستعمرات الدينية، على حين أن الرواد الأوائل من هؤلاء المستعمرين لم يهاجروا من بلادهم إلا فراراً من التحكم في ضائرتهم والناس ومعتقداتهم. وأخيراً أصّر البرلمان الانجليزي ومعه الحكومة على تقرير رسوم وضرائب جديدة على أهل المستعمرات لتسديد بعض الديون التي

كابيتها إنجلترا في حروبها ضد فرنسا . فاعترض أهل المستعمرات وقالوا إنهم غير ممثلين في البرلمان الانجليزي ، ولا يستجيبون في دفع الضرائب إلا للقوانين التي تصدرها جمعياتهم التي يمثلون فيها . وقد بعثوا بموقفهم هذا النظرية القانونية المشهورة التي تقول : « إنه لا ضريبة من غير تمثيل » . ومع أن الحكومة الانجليزية قد اضطرت إلى سحب بعض هذه الضرائب التي كانت قد فرضتها فان البرلمان قد أصرَّ على حقه في التشريع لجميع أجزاء الامبراطورية البريطانية . وكانت نتيجة هذا التعتن من جانب الحكومة الانجليزية أن نشبت حرب الاستقلال الأمريكي في سنة ١٧٧٥ . وقد لاقى أهل المستعمرات في أول الأمر محناً وشدائد عدة ؛ فقد كان يعوزهم المال والرجال ، وينقصهم حسن القيادة وهم يحاربون أقوى دول الأرض بجرأ وأكثرها مالا وجاهاً . ولكنهم سرعان ما حزموا أمرهم وجمعوا كلمتهم ، فاخترأوا لقيادتهم بطلمهم جورج واشنطن ، فجعل يدرّب الجيوش ويرسم الخطط ويتفق عليها مع أصدقاء أمريكا من قواد فرنسا وأسبانيا اللتين اغتتمتا الفرصة وأعلنتا الحرب على إنجلترا . وكان مندوبو المستعمرات الأمريكية قد اجتمعوا في مدينة فيلادلفيا في مايو سنة ١٧٧٦ وأعلنوا استقلالهم في الوثيقة التاريخية التي قالوا فيها تأييداً للآراء الديمقراطية التي تقوم عليها حكومة الولايات المتحدة : « إن الحكومات تستمد قوتها من إرادة الحكومين ورضائهم . فاذا أخلت حكومة بذلك الأساس صار من حق الشعب أن يقوض هذه الحكومة ويقم بدلا منها غيرها على أسس ومبادئ خليفة بأن تحقق للناس أمنهم وسعادتهم . » وكان لاعتراف فرنسا وأسبانيا وغيرها من دول أوروبا التي كانت تنقم على إنجلترا حق سيادتها على البحار أثر ظاهر في تقوية الروح المعنوية لدى الأمريكيين ، وتحول الحرب من البر إلى البحر بوقوف الدولتين الاستعماريتين المتنافستين إنجلترا وفرنسا وجهاً لوجه . واستمرت الحرب سجالاً بين الجانبين إلى سنة ١٧٨١ حين انتصر واشنطن وحلفاؤه الفرنسيون ، واضطر الانجليز إلى التسليم أمام يوركتون ، وعقدت معاهدة الصلح في سنة ١٧٨٣ ، وبها أقرت إنجلترا استقلال الولايات المتحدة ؛ وبذلك انطوت الصفحة الأولى من سجل الاستعمار الانجليزي . ولو أن إنجلترا كانت قد سارعت إلى إجابة أبناء مستعمراتها إلى ملتسمهم برفع الضرائب والرسوم المفروضة عليهم كرهاً

والنزول عن حق التشريع لجماعات تفصلهم عنها آلاف من الأميال يقتضى طها في تلك الأيام ذهاباً وإياباً ثلاثة أشهر على الأقل - لبقت أمريكا إلى اليوم إحدى مجموعة الأمم الحرة داخل نطاق الامبراطورية البريطانية .

ولكن خيبة الأمل التي عانتها إنجلترا بضياع الولايات المتحدة من يدها قد علمتها أن تحترس وتسخو في معاملاتها مع باقي المستعمرات التي تقوم على جهود المستعمرين من الانجليز وغيرهم من الشعوب الأوربية، فانتهجت في كندا سياسة ما لبثت أن اتخذتها نموذجاً اتخذته في باقي المستعمرات . ففي سنة ١٨٣٧ عين لورد درهام Durham حاكماً عاماً على كندا ؛ وكان الغرض الأول من تعيينه تهدئة النفوس الشائرة ضد الموظفين الانجليز الذين كانت ترسلهم الحكومة الانجليزية لشغل الوظائف التنفيذية، وتسوية الخلافات بين أهل المستعمرة من الانجليز والفرنسيين . فنجح درهام في مهمته، وقبل أن يبارح البلاد في سنة ١٨٣٩ وضع تقريراً تاريخياً هاماً في سياسة الاستعمار ضمنه المبادئ الكبرى التي سارت عليها الحكومة الانجليزية فيما بعد . وتتلخص هذه المبادئ في ضرورة منح المستعمرات حكومات ذاتية، تكون مسئولة رأساً أمام الهيئة التشريعية في المستعمرة، وسم الأقاليم التي تتألف منها المستعمرات في نظام فدرائى أو اتحادى شبيه بالنظام الذى سلكته الولايات المتحدة . وكان إنشاء السكك الحديدية قد بدأ ينتشر حينذاك ، فحضر لورد درهام على تعمير البلاد وربط أطرافها ببناء السكك الحديدية ؛ وبذلك تأتلف الأقاليم وتندمج المصالح ويكثر العمران . وقد أقرت الحكومة الانجليزية هذا النظام، واتبعته تدريجياً في كندا ثم في سائر أملاكها . وبعد أن كان النزاع حاداً بين الانجليز والفرنسيين الذين استعمروا وادى نهرسنت لورنس في كندا اتفق العنصران واثلتف مصالحهما، وأصبحت اللغة الانجليزية واللغة الفرنسية التي يتكلمها ٣ في المائة من سكان كندا مستعملتين رسمياً في البلاد . وقد تمتعت كندا بالحكم الذاتى في سنة ١٨٤٩ وتألفت حكومة الدومينيون باتحاد ولايات كندا سنة ١٨٦٧ .

وحذت أستراليا حذو كندا ، فبدأت ولاياتها تتمتع بالحكم الذاتى منذ ١٨٦٠ ثم توالى الأحداث التي جعلت أهل الولايات يطالبون بتكوين اتحاد

فدراى ، حتى يمكن مواجهة الخطر الصينى واليابانى ، وكان كلاهما يهدد القارة الجديدة بخطر داهم . فالصينيون كانوا ينزحون بسرعة وبكثرة للعمل فى مناجم الذهب والنحاس التى استكشفت فى استراليا . واليابان كانت تعد نفسها الدولة الحربية البحرية الأولى فى الشرق الأقصى ، وكانت ترنو ببصرها نحو أستراليا . لذلك اتفق الاستراليون على تأليف حكومة اتحادية ، وأصدر البرلمان الانجليزى قانونا بذلك فى سنة ١٩٠٢ ، ولم يطلق الاستراليون على اتحادهم اسم « الدومينيون » مثل كندا ، بل أسموا اتحادهم « الكومنولث » Commonwealth وهى أقرب الكلمات إلى معنى الجمهورية . ولم تشترك نيوزيلندة فى هذا الاتحاد ، بل كونت حكومة ذاتية مسئولة منذ ١٨٥٢ وجعلتها صورة قريبة من شكل الحكومة الانجليزية . وأهل نيوزيلندة من أشد الناس تعلقا بالامبراطورية البريطانية وأكثرهم شها بآبائهم وأجدادهم .

أما فى جنوب إفريقية فقد صادف الاستعمار الانجليزى من جانب المستعمرين الهولنديين الذين عرفوا بالبوير صلابة وشدة مراس ، أدت فى النهاية إلى نشوب حرب مريرة بين العنصرين . وقد آلت مستعمرة الرأس من الهولنديين إلى الانجليز فى أثناء الكفاح بين فرنسا وانجلترا فى عهد الثورة الفرنسية ونابليون بونابرت ، وكانت هولاندة خاضعة إذا ذاك لنابليون باسم جمهورية بتافيا . وقد تأيد امتلاك انجلترا للمستعمرة بمقتضى قرارات مؤتمر فيينا . ولكن الهولنديين الذين هاجر أجدادهم من بلادهم ، كما فعل المستعمرون الأمريكيون ، فراراً من الاضطهاد ، لم يطيعوا أن يخضعوا لحكم الانجليز ، فأخذوا يرحلون بين سنتى ١٨٣٥ و ١٨٣٧ بالآلاف من دورهم ومعهم أولادهم ونسأؤهم وماشيئهم نحو الشمال ، ضاربين فى آفاق الأرض على غير هدى ، مستهدفين لغارات القبائل الممجية ، ثابتين لتقلبات الجو ووعورة الطرق ، حتى حط بعضهم الرحال فى إقليم ناتال على ساحل المحيط الهندى ، وتابع بعضهم السير غرباً وشمالاً حتى استقروا فى إقليمى نهر أورانج والترنسفال . وكانوا يمتنون أنفسهم بعد هذه الهجرة أن يعيشوا أحراراً فى مواطنهم الجديدة بعيدين عن مضايقة الاستعمار الانجليزى . ولكن ألى لهم ذلك وقد أصبحوا مواطنين خاضعين للقانون الانجليزى ! فما زالت حكومة الرأس تتعقبهم مرحلة بعد أخرى حتى مد الأخطبوط الاستعمارى أطرافه واحتضن هذه الأقاليم جميعاً

وما جاورها . وكان إقليم ناتال أول ما امتدت إليه يد الانجليز لوقوعه على ساحل المحيط الهندي ، وإمكان تهديده لمراكز الانجليز في مستعمرة الرأس . وعلى أثر ذلك هاجر البوير من ناتال بقضهم وقضيضهم تاركين مواطنهم للمرة الثانية سنة ١٨٤٥ ، قاصدين إلى الشمال والغرب والترنسفال والأورنج . ثم هبت على البلاد نسمة من أريج الحرية ، كان مصدرها حكومة الأحرار في إنجلترا ، فسمح لمستعمرات الرأس جميعاً بالحكم الذاتي ، وأصبح البوير أحراراً في جمهوريتهم اللتين أقاموهما في الأورنج والترنسفال . ولكن سرعان ما استكشفت مناجم الماس والذهب في الترنسفال والأورنج . ولما كان إنتاج الجمهوريتين ، وخاصة في الترنسفال ، لهُذين المعدنين النفيسين قد فاق كل ما كان منتظراً ، فقد انجذب الانجليز من رجال الأعمال وغيرهم من الأوروبيين نحو مصدر هذه السعادة الدافقة ، وبدأت الحكومة الانجليزية منذ ذلك الوقت تضع خططها لضم الجمهوريتين . فكأنما كان كشف الماس والذهب في تلك الأرجاء نذيراً للبوير بضياح حريتهم واستقلالهم .

وقام النزاع بين الانجليز والبوير بشأن حق التمثيل في الترنسفال ؛ إذ قصره كروجر Kruger رئيس الترنسفال على البوير دون الآخرين ، وكان على رأس حكومة مستعمرة الكاب أو الرأس سسل رودس Rhodes الذي يرجع إليه فضل توسيع النفوذ الانجليزي في تلك الأرجاء ، وقد دبر سراً مع أحد أصدقائه هجوماً سريعاً على الترنسفال ؛ لكنه مالبث أن أخفق وكسب البوير أول موقعة من مواقع الحرب التي استعرت بين الانجليز والبوير واستمرت إلى ١٩٠٢ . وقد حالف النصر البوير في أول الأمر ، لضعف القواد الانجليز من جهة ، ومهارة البوير في الكر والفر من جهة أخرى ، وقد انتهز وليم الثاني إمبراطور ألمانيا الفرصة لاطهار حنقه على إنجلترا ، فأرسل برقيته الشهيرة يخنئ كروجر على انتصاره . وبدأ للناس جميعاً أن الانجليز لابد مغلوبون أمام صلابة البوير وحنكة قوادهم . ولكن الانجليز ، كطبيعتهم في الحروب ، تذرعوا بالصبر وضبط النفس على رغم هزيمتهم ، وأخذوا يعدون العدة لفك الحصار عن المدين التي طوقها البوير ، وعينوا لقيادة الحرب اثنين من أكبر قوادهم ، وهما لورد روبرتس Roberts قائداً عاماً . ولورد كتشنر رئيساً لأركان الحرب . وعلى أثر ذلك توالى انتصارات الانجليز وفك الحصار

عن المدن ، وآخرها مافكنج . ومن ثم سقطت بريتوريا عاصمة الترنسفال ، وجوهانسبرج الشهيرة بمناجم الذهب ، وكذلك سقطت مدن جمهورية الأورنج حليفة الترنسفال في الحرب ، واضطر الرئيس كروجر إلى الفرار إلى أوربا حيث بقى بها إلى أن مات سنة ١٩٠٤ . ولكن البوير كشعب وجيش محارب لم يقهروا ولم يذعنوا ، بل لجأوا إلى حرب العصابات ، وأخذوا يغيرون باستمرار على السكك الحديدية ومراكز الانجليز وقواعدهم ليلة بعد أخرى ، والانجليز حائرون في أمرهم لا يعرفون لهم مستقراً . وأخيراً لم يقو البوير على متابعة هجائهم ؛ فقد أخذت أعدادهم تقل . وكان كتشنر الذى تولى القيادة العامة بعد روبرتس قد أمر بجمع أسر البوير نساءهم وأطفالهم في معسكرات خاصة تحت حراسة الانجليز ؛ فلم ير البوير مندوحة من مفاوضة الانجليز للصلح . وانتهت الحرب في مارس سنة ١٩٠٢ بمعاهدة فرينجنج Vereeniging وقد أبدى فيها الانجليز كثيراً من الكرم والمروءة ، فدفعوا للبوير تعويضاً عما أصاب مزارعهم وحقولهم من التلف ، وقرروا أن يبقى تعليم اللغة الهولندية بالمدارس ويستمر استعمالها بالحكم ، وأن يتمتع الذين يستسلمون منهم بحرياتهم وأملأهم كاملة . وشفعوا هذه المعاهدة بعد خمس سنوات باعطائهم حق الحكم الذاتى . وبعد ذلك بسنتين تألف اتحاد جنوب إفريقية من الولايات الأربع : الرأس وناقال والترنسفال والأورنج ، وصارت اللغة الهولندية المعروفة في جنوب إفريقية بالأفريكان Africaans رسمية إلى جانب اللغة الانجليزية . ويبلغ عدد البوير الذين يتكلمون هذه اللغة نحو ٦٠ في المائة من مجموع السكان الاوربيين . ولما آنسوا صعوبة في تعيين العاصمة اتفقوا على حل طريف ، وهو أن تكون بريتوريا مقر الحكومة التنفيذية ، ومدينة الكاب مقر الهيئة التشريعية ، وبلمقتين عاصمة الاورانج مقر الهيئة القضائية العليا ، واختاروا لرياسة حكومة الاتحاد القائد البويرى بوذا Botha ومنذ ذلك الوقت أخذت الجروح التى خلفتها الاجيال السابقة تندمل . وقد اشترك اتحاد جنوب إفريقية في الحرين العالميتين إلى جانب إنجلترا ، وكان المارشال سمطس رئيس الحكومة إذ ذاك عضواً في وزارة الحرب في أثناء الحرب العالمية الأولى ، ولا يزال من كبار أساطين السياسة في الامبراطورية البريطانية .

أما تاريخ إرلندة فمأساة طويلة بدأ الفصل الأخير منها سنة ١٨٠٠ حين

قرر البرلمان الانجليزي ضم ايرلندا إلى بريطانيا على غير رضا الأهالى . وقد حاولوا إرضاء الشعور الكاثوليكي في ايرلندا خاصة وسائر أنحاء الامبراطورية عامة برقع القيود المدنية التي كانت تحول دون اضطلاع الكاثوليك بالاعمال الحكومية . ولكن ذلك لم يجد شيئاً ، إذ عهد نواب ايرلندا في البرلمان الانجليزي إلى عرقلة الاجراءات البرلمانية ووضع العقبات في طريق الوزارات التي كانت تتناوب الحكم سواء من المحافظين أو الأحرار إلى أن قام الوزير الانجليزي المعروف غلادستون زعيم الأحرار ينادى بضرورة إعطاء ايرلندا نظام الهوم رول Home rule أو الحكم الذاتي . وقد أثارت سياسته ضجة هائلة بين الأحزاب الانجليزية ، فغاز عدد كبير من الأحرار إلى جانب المحافظين أو الاتحاديين أى الذين يجهنون بقاء الاتحاد بين بريطانيا وايرلندا ، وظل مشروع الحكم الذاتي لارلندا بين الصعود والهبوط والاقرار والرفض إلى سنة ١٩١٤ حين وافق البرلمان الانجليزي على نظام الهوم رول مع استبعاد إقليم ألستر في شمال ايرلندا من هذا النظام وإبقائه على اتحاده مع بريطانيا .

ثم جاءت الحرب العالمية الأولى فوقفت تنفيذ الهوم رول ، واشترك فيها الارلنديون بحماسةهم المعهودة حتى إن الأنشودة التي أصبحت علماً للحرب وتناقلتها الألسن وتغنى بها جنود الحلفاء من كل جنس وفي جميع الأصقاع كانت تردد في مطلعها الحنين إلى تبرارى Tiperary أحد أقاليم ايرلندا تلك الجزيرة الزمردية الخضراء . ولكن كل هذا لم يمنع قيام ثورة مخففة في سنة ١٩١٦ بمساعدة ألمانيا ، ثم تكوين جماعة الوطنيين المعروفين بالسن فين sinn féin الذين نظموا صفوفهم تنظيمياً عسكرياً ، ونادوا باستقلال ايرلندا التام . فما كادت تنتهى الحرب حتى كانت ايرلندا في حالة هياج شديد ضد الانجليز . ولم يلبث أن نشب القتال بين الجانبين واجتمع في سنة ١٩١٨ ٧٣ عضواً من أعضاء البرلمان الذين انتخبوا من حزب السن فين وأعلنوا جمهورية ايرلندا المستقلة ، وكونوا وزارة لا رلندا أخذت تواصل أعمال العنف ضد الانجليز ورجال البوليس بصنفة خاصة ، واستمرت هذه الحال إلى سنة ١٩٢١ حين بدأت المفاوضات بين ديفاليرا De Valera رئيس السن فين والحكومة الانجليزية . وعقد الجانبان «المعاهدة الارلندية» . وبمقتضاها صار لدولة ايرلندا الحرة ما عدا إقليم ألستر في الشمال نظام الحكم الذاتي أو الدومينيون على مثال نظام الحكم في

كندا . ولكن الوطنيين الارلنديين لم يقنعوا ولم يتقيدوا بهذا النظام ، وسرعان ما تخلصوا من القيود التي فرضت عليهم ، فأبطلوا تعيين الحاكم العام الذي كان يمثل التاج البريطاني ، وحلف يمين الطاعة للملك ، وأصدروا دستوراً جديداً في سنة ١٩٣٧ أعلنوا فيه الجمهورية ، وجعلوا اللغة الارلندية اللغة الرسمية للجمهورية الجديدة التي أطلقوا عليها اسم « إيريه » Eire وأجازوا استعمال اللغة الانجليزية ولكنهم لم يذكروا شيئاً في دستورهم الجديد خاصاً بالملك أو التاج البريطاني . ولا أعلنت الحرب العالمية الثانية التزمت إيرلندة الحيطة إلى النهاية ، ولا يزال الوطنيون ينقمون على انجلترا فصل شمالى إيرلندة عن بلادهم . ومادام الخلاف بين الشعبين يقوم على اعتبارات دينية فان الأمل في الاتفاق بين الشعبين يبدو غير قريب .

وعلى ذلك فالمستعمرات البريطانية التي تتمتع الآن بنظام الحكم الذاتي هي كندا ، وأستراليا ، ونيوزلندة ، وجنوب إفريقية تضاف إليها إيرلندة . وكان المحافظون كعهدهم دائماً كلما همت الحكومة الانجليزية باقرار الحكم الذاتي لاحدى هذه المستعمرات جاهرُوا بأن هذه القوانين لا بد أن تؤدي إلى انحلال الامبراطورية البريطانية وتصفيتها ، وحذروا الحكومات من المضي فيها . ومع ذلك فقد احتفظت انجلترا بتعيين حكام عامين يمثلون التاج في هذه الأملاك ، كما احتفظت في أول الأمر بقواعدها البحرية وحامياتها ، وبتوجيه السياسة الخارجية للامبراطورية ، وتقدير الحرب والسلم وحق الاحتكام إليها في المسائل الثانوية والبدستورية التي يختلف فيها الرأي . ولكن هذه التحفظات أخذت تتساقط واحدة بعد أخرى ؛ إذ جاءت الحرب الكبرى ومكنت المستعمرات من مزاوله الأعمال الدولية في الحرب والسياسة ، مما قوى في نفوس أهل المستعمرات شعورهم بالمسئولية الذاتية ، وانبئى على ذلك أنهم اشتركوا في مؤتمر الصلح سنة ١٩١٩ لا بصفتهم تابعين لبريطانيا ولكن باسم بلادهم ، واختير أربعة منهم ضمن الدول المؤسسة لعصبة الأمم ، كما عهد إلى بعضهم ، كاستراليا وجنوب إفريقية ، بالانتداب على بعض الأقاليم والجزر التي كانت تابعة لألمانيا . وكانت الحكومة الانجليزية تنظم بين آونة وأخرى اجتماعات تضم فيها ممثلى الامبراطورية البريطانية للاتفاق على المسائل المشتركة بينها . وكان آخر هذه المؤتمرات في سنة ١٩٣١ وفيه صدر قانون وستمنستر Westminster الذى وضع القواعد العامة التي تنظم الامبراطورية . وقد

نص فيها على أن التاج هو الرمز الذي يربط بين أعضاء مجموعة الأمم الحرة البريطانية ، وأن أى تغيير فى وراثته التاج يستلزم أخذ رأى برلمانات الدومينيون على حد المساواة مع البرلمان الانجليزى . ونص فيها أيضاً على أن القوانين التى يصدرها البرلمان الانجليزى لا تسرى على الدومينيون إلا إذا أرادت ذلك برضاها . وبذلك زال أثر القانون القديم الذى كان يحيز للبرلمان الانجليزى حق إلغاء أو تعديل القوانين التى تصدرها المستعمرات . وبإصدار هذا القانون أصبحت المستعمرات فى حقيقة الأمر دولا ذات سيادة داخل مجموعة الأمم الحرة البريطانية ، وصارت حكوماتها مساوية فى المركز لحكومة بريطانيا نفسها ، وصار من حقها أن تتعاقد مع الدول وأن تتبادل معها التمثيل السياسى ، ولها أن تقرر دخول الحرب التى تشتبك فيها إنجلترا أو ألا تدخلها . ومعنى ذلك أن الملك فى بريطانيا قد يكون فى حالة حرب مع ألمانيا على حين يكون هو نفسه فى حالة سلم معها بصفته ملكا على جنوب إفريقية . وقد جنح التاج أخيراً إلى تعيين الحكام العامين من رجال المستعمرات نفسها .

وقد يبدو لأول وهلة من هذه القوانين أو التصرفات أن الأملاك البريطانية المستقلة لم تعد تابعة لبريطانيا إلا بالاسم ، على أن الحقيقة التى دلت عليها الحرب العالمية الثانية هى أن توافق الأمزجة والمشاعر بين الشعوب التى تسكن هذه الممتلكات وتقديسهم جميعاً للحرىات وأساليب الحكم الديموقراطى الصحيح بالإضافة إلى روابط الدم واللغة والدين التى تربط بين معظم هذه الشعوب — كل ذلك قد ل من التاج الذى يربط الجميع خيوطاً دقيقة رفيعة هى إن دقت النظر أمضى من الصلب وأرق من الهواء .

محمد رفعت